العولمة ومنعطف التجديد
نحو فلسفة إسلامية للعصر العولمة

د. بدران بن لحسن
قسم الفلسفة ـ جامعة باتنة

حال الحضارة الإسلامية : وصف حالة.

ليس بمقدور أحد – في ضوء المعطيات الراهنة – أن ينكر كون الأمة الإسلامية في العصر الراهن تعاني من حالة انهيار حضاري يعبر عن نفسه بصيغ شتى، ليس أقلها خطرا ما يلاحظه المؤرخ البريطاني "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ بخصوص الحضارات الست المتبقية بعد غياب ما يزيد عن العشرين، وأن هذه الحضارات المتبقية – بما فيه الحضارة الإسلامية – تلفظ أنفاسها، وتدور في فلك الحضارة الغربية الغالبة، وهي معرضة في أية لحظة للتفكك والتلاشي في مدارات هذه الحضارة[1] .

ومن الحقائق الأساسية التي تجابه الإنسان في عصرنا أن النموذج الحضاري الغربي أصبح يشغل مكانا مركزيا في وجدان معظم المفكرين والشعوب، وليس من المستغرب أن يحقق نموذج حضاري له مقدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة انتصارات باهرة، على المستويين المعنوي والمادي[2]. ونحن نلاحظ كيف أن التعامل مع الحضارة الغربية الغالبة أخذ – منذ أخريات القرن الثامن عشر – صيغة الانبهار الذي دفع كثيرين من قيادات الأمة الإسلامية ونخبها وعلمائها، وأبنائها عموما، إلى الأخذ غير المتبصر عن هذه الحضارة، أو ما سماه مالك بن نبي "التكديس"[3]، الذي يستورد ويراكم الخبرات والأشياء، ولكنه لا يصنع حضارة، أو يعيد نهوضها من جديد ؟!.

ومكمن الخطورة في هذا الأخذ أنه لم يميز بين الأشياء والأفكار . فإذا كان في الحالة الأولى يمارس عملا مشروعا، فإنه في الثانية يقتحم عقل الأمة وعقيدتها وثوابتها التصورية وخصائصها الأساسية بجملة من المفردات التي تلحق الدمار بمقومات الشخصية الإسلامية، وتقودها إلى الخروج من ساحة الاحتكاك الحضاري، وقد فقدت ذاتها وأصبحت – في نهاية الأمر – تابعا يدور في فلك الآخر .

ولقد جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن العشرين – وبخاصة بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وغياب التعددية القطبية التي تحكم العالم، وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية

بالقيادة السياسية والعسكرية والحضارية، فيما أطلق عليه "النظام العالمي الجديد"، وانكشاف المواجهة بين هذا النظام وعالم الإسلام، وظهور العديد من النظريات والآراء التي تمنح الخلفيات الفلسفية للوضع الجديد، وتعطيه مبررات التنامي والاستمرار، وبخاصة نظرية "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما، ونظرية "صراع الحضارات" لصموئيل هنتنجتون، التي تبرر لتحكم الزعامة الأمريكية وبطانتها اليهودية بمصائر الأمم والدول والشعوب، وتضع مقدراتها المالية والاقتصادية – في نهاية الأمر – تحت قبضتها، تفعل بها ما تشاء؛ من أجل تحقيق أهداف مراكز الهيمنة الغربية على حساب الأمم والدول والشعوب، وبخاصة تلك التي قدر لها أن تمتد جنوبي خط طنجة (جاكرتا) الذي سبق وأن تحدث عنه مالك بن نبي، والذي قسم العالم إلى شمال وجنوب، أو عالم الكبار والصغار، أو الأغنياء والفقراء، أو الأقوياء والضعفاء – جاء هذا كله لكي يضع الأمة الإسلامية قبالة شبكة جديدة من التحديات التي تزيد في تضييق الخناق على وجودها الحضاري، وتهدد بإلغاء شخصيتها وإلحاقها – في نهاية الأمر – بكيان الحضارة الغربية الغالب4. وصولا إلى ظاهرة العولمة وما جلبت معها من تحديات.

العولمة هل هي آخر موجات "الحداثة الفائقة"[5]:

وتمثل العولمة أخطر تحول تاريخي واجتماعي وسياسي واقتصادي ظهر قبل نهاية القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين. وجاءت العولمة كمولود للنظام العالمي الجديد الذي تشكل تحت تأثير أربع ثورات أساسية خلال العقد الأخير من القرن العشرين. وهذه الثورات هي:(1) الثورة الديمقراطية التي تقودها الدول المتقدمة والمؤسسات الدولية العملاقة الماليه والاقتصادية...تتبنى هذه الثورة اقتصاديات السوق وتحرير التجارة بعد تفتيت الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية. و(2) الثورة العلمية والتكنولوجية الجديدة (الموجة الثالثة) والتي تعتمد على المعلوماتية، والإلكترونيات الدقيقة، والفوتونات الضوئية، والطاقة النووية، والفضاء، والمواد الجديدة والهندسة الوراثية... إلخ. و(3) ثورة التكتلات الاقتصادية والسياسية العملاقة حيث التكامل والتعاون ودمج النماذج الإنتاجية بالنماذج التكنولوجية فيما بين الدول وكثير من الشركات الكبرى خصوصا الشركات متعددة الجنسيات. و(4) ثورة تحرير التجارة والنجاح في إنشاء منظمة التجارة العالمية لتحل محل الجات[6].

لقد جاءت العولمة كنتاج حتمي لسرعة المواصلات...والتطور الرهيب في تكنولوجيا المعلومات... وسهولة الاتصالات ...والتجارة الدولية...والزيادة في السياحة العالمية. وإن

الاستخدام الواسع والمطرد لوسائل الاتصالات الحديثة في مختلف ميادين الحياة أزال الحواجز الزمنية والمكانية بين الأمم، وحول العالم إلى قرية واحدة لها تشريعاتها ومتطلباتها التي تقوم على الندية والمنافسة والمواكبة.

والحقيقة أن ما نشهده أو يوشك أن هو خاتمة لعصر وافتتاحية لعصر جديد في مسيرة التاريخ. وإننا حقيقة أمام متغيرات وتحديات هائلة على المستويين الداخلي والخارجي في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتكنولوجية.

والتحديات العلمية والتقنية القائمة والمتوقعة بالغة الكم والكيف والتوزيع والتوجيه، وهي أيضا بالغة الأثر على الأمة الإسلامية من حيث استمرار البقاء واحتلال موقع على الخريطة العالمية والحضارة المعاصرة وتجنب التخلف والتيه في الدروب الخلفية للتاريخ. ولذلك فإن عالم الإسلام يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلية، قد تكون جدتها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه، بما أنه حصيلة قرون طويلة من التشكل التاريخي على مستوى الكم والنوع. يحتاج إلى صياغة فلسفة جديدة للحياة والعلم والحضارة لتخرج من معضلات التحديات التي تواجهنا بها موجات الحداثة الفائقة.

التحدي الذي يطرحه عصر العولمة:

وبعبارة أخرى فإن عصر العولمة يفرض مجموعة من التحديات، وفي هذه الورقة سنتناول بعض التحديات مثل التحدي المعرفي والتحدي الأخلاقي وتحدي فساد الكون.

1. تحدي النموذج المعرفي:

إن النسق المعرفي الغربي الذي يؤطر المعرفة ويثريها بمقولاته، والرؤية الغربية لله عز وجل والكون وللكون والحياة هي التي تسيطر على توجهات أغلبية شعوب الأرض الآن، وتحاصر ثمرات هذا المنهج وعي الإنسان وفكره وسلوكه ورغباته، حتى تكاد تأسر رؤية الإنسانية للوجود، فأصبحت الحضارة الغربية "قانون العصر" المهيمن[7].

وعندما تنظر إلى هيمنة النموذج المعرفي الوضعي العَلماني الغربي تظن لأول وهلة أنه أبلغ ما يمكن للعقل البشري أن يبلغه، ومبعث هذا الاعتقاد أن النموذج المذكور قد مكن لنفسه بترسانة من الوسائل التكنولوجية والتقنيات المتطورة التي استبدت بحياة الإنسان في شتى جوانبها، داخل بيته وخارجه. سيارة يمتطيها وهاتف يحدد به المواعيد وجهاز كمبيوتر يكتب فيه ما يشاء ويخط فيه سائر خطاباته ويتصل به ويقرب البعاد، فيظهر لك زيادة إلى ما سبق أن

الغرب قد امتلك ناصية الحقيقة المطلقة التي لا يساورها شك ولا يعتريها نقص. والعالم الإسلامي إذ أفاق من السيطرة العسكرية الغربية، يحاول أن يضيف إلى ذلك التحرر من الهيمنة الشاملة والكاسحة للحضارة الغربية بنموذجها المعرفي، لأنه يحتوي بعض العناصر المخالفة للرؤية الإسلامية للحياة، من استبطان الأسلوب العَلماني والوضعي والنسبي والمادي والتطوري، في تحليل الظواهر وقراءة التاريخ [8].

فبهيمنته فإن الغرب أتلف قداسة الوجود في النفوس والضمائر والثقافة، بسبب منشأ ثقافتها التي أطلقت عليها اسم العلمية، والتي أخضعت كل شيء وكل فكرة إلى مقاييس الكم منذ عهد ديكارت. ذلك أن المادية المتمركزة، والكمية التي أشيع عنها أنها هي العلم وهي المنهج العلمي الصحيح، صارت معيارا لقياس مدى صحة أو علمية أي فكرة أو شيء في هذا الوجود.

فالتطور الهائل الذي عرفته العلوم الطبيعية والتكنولوجية وحتى الإنسانية، قائم على الفكر المادي، والفلسفة المادية التي طغت على الحضارة المعاصرة سواء في أصولها النظرية أو في تطبيقاتها الاجتماعية والسياسية.

فصار المجال العقائدي وفق النظرة المادية الوضعية من قبيل الشأن الشخصي الذي لا يخضع لمنطق البرهان الاستدلالي العقلي، وبالتالي لا يمكن اعتباره علما، إذ "إن أي عقيدة دينية ليست سوى انعكاسه خرافية في ذهن الإنسان للقوات الخارجية التي تسيطر على حياته اليومية، وفي ذلك الانعكاس تكتسي القوات الأرضية شبح قوات لاهوتية" [9].

فالمنهج المعرفي الغربي مادي في أساسه، متمركز على المادة، وبالتالي فهي تنكر الغيب وما يتصل به من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وترفض الحضارة الغربية وفق منهجها العلمي أي مصدر آخر للمعرفة خارج عن نطاق الفحص الحسي المادي، الخاضع للتجربة المخبرية أو المشاهدة.

وبما أنها مادية فإنها تخضع كل شيء لقوانين المادة من تحول وتغير، ولا يوجد هناك ما يسمى ثابت مثل القيم والأخلاق، لأنها ليست أشياء يمكن تقديرها بالكم، فالصدق بما انه لا يمكن وزنه ولا قياسه بالكمية أو بالأرقام فهو - في المفهوم الغربي - شيء مفتعل وغير موجود، ولا ثمرة من ورائه.

لقد تكونت في بلدان الغرب ـــ من جراء الفصل بين العلم والإيمان ـــ نظريات العلوم الإنسانية والاجتماعية والفنون والآداب، مبنية على رؤية ووجهات نظر مادية للإنسان ونفسيته، ومحاكمة طبيعته وتصرفاته وميلوه، وتقويمها من خلال مقاييس المادة وحدها[10]. كما أن هذه العلوم الإنسانية في طابعها العلماني الحديث وزخم الاكتشافات الخارقة والمكتسبات الهائلة التي أحرزت عليها أدت من حيث أبعادها الأخلاقية والروحية والإنسانية إلى متاهات عقائدية. ذلك أنها سلبت الإنسان من مكوناته الأساسية التي ترتفع بها فطرته البشرية، وتعتدل بها نفسيته، وتتزكى بها عقليته ويتسامى بها ضميره وروحه[11].

وزاد الخطب حين أحكم الغرب قبضته على مقاليد العالم في أواخر القرن الماضي، إذ عمل على تهميش الثقافات القائمة ببلدان العالم التي استعمرها وأبادها ، معتبرا ثقافته المحور والمقياس لكل فكر ومعرفة، وبالتالي أساسا لكل خطاب. فأمام هشاشة تلك الثقافات التي بعدت عن ثوابتها الأصلية، ومع الغلبة التي حققتها الثقافة الغازية، بدأ الاجتياح والغزو الثقافي، وبدأت الحصون الفكرية والثقافية للأمم الأخرى تتهاوى أمامه.

وعلى الرغم من أن الأمة الإسلامية لم تستلم بمجموعها للثقافة الغازية، إذ التجأت الفئات المقاومة منها إلى ما بقي محفوظا من تاريخها الثقافي والحضاري، تحتمي به من الذوبان، إلا أن ذلك اللجوء لم يكن في مستوى التمكين من المقاومة الفاعلة، وإن حال دون الذوبان الشامل. وكانت النتيجة انعدام تمكن الأمة من عملية النهوض والبناء الحضاري، نظراً لهشاشة الفهم للموروث المحتمي بهم من جهة، والعجز عن التعامل مع الثقافة الوافدة، أو صد خطابها الحامل للتحدي من جهة أخرى.

وطبعا لم يحط الأمر دون سقوط فئات من الأمة في الاستلاب الثقافي والشغف بقوة الغالب، وتشرب ثقافته والانسياق وراء خطابه الفكري والمعرفي، بمحاولة تقليده في كل شيء، والانبهار به إلى درجة المسخ في شكل أبواق تردد محتواه ومضمونه وتروجه، ظنا من تلك الفئات أن ذلك قد يمكن الأمة من اجتياز حاجز التخلف ، واللحاق بركب الحضارة، ويعوض عن مركب النقص. إلا أن أصحاب هذا التوجه لم يجنوا إلا الحصاد المرّ، المتمثل في فقدان الهوية واضطراب الرؤية وتفكك الشخصية الإسلامية[12].

2. تحدي الأزمة الأخلاقية:

إن تحدي الفساد الأخلاقي يكتسح العالم بفعل غياب بعد الأخلاق في الحياة المعاصرة، والقيمة الخلقية أرقى من السلوك التجاري الذي يظهر في تصرفات الكثير، وليس الغاية من ذلك نداء الضمير بقدر ما هو بروتوكولات وإتكيت وبالتعبير الغربي (Ethics) وهناك فرق بين الخلق الذي هو ألصق بالفطرة ونداء الضمير والتزام التقوى، وبين الإثيكس بالمفهوم الغربي الذي يراعي المظهر الشكلي دون الجوهر. لقد غدت الأخلاق بالمفهوم الغربي ذات بعد نفعي تجاري، فالرجل لا يكذب لأن سمعته تتأثر، فإذا لم تتأثر فليس في الأمر تثريب، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن التحلل من القيم صار موضة، وعلامة على الحضارة الغربية التي هتكت الأستار وعرّت الإنسان، وتجاوزت في إباحيتها كل وصف، وهذا الذي دفع كثيرا من الشباب إلى الاستقالة الاجتماعية من الحياة؛ إما عن طريق الانتحار بطرقه المختلفة، وإما بالانغماس في عالم الرذيلة والمخدرات والفجور، مما أصبح يهدد الأسرة بالانهيار والتفكك، ويقضي على قيم التآلف والرحمة والعطف، وكل القيم الروحية التي تفتح أمام الإنسان أبواب الأمل في الحياة الكريمة، وتخفف عنه آلام حضارة البعد الواحد.

وللأخلاق دورها الريادي في تحقيق سعادة البشرية، وفي صياغة وجهة البنيان الاجتماعي، وتزويده بالمبررات الغيبية اللازمة لحفظ التوازن بين مطالب النفس وتطلعات الروح، وبين زخم الحركية الاجتماعية.

يقول مالك بن نبي في موقع الأخلاق من البناء الاجتماعي: "إن القيمة الأخلاقية لها أهميتها في الحفاظ على البناء الاجتماعي والحضاري، إذ تحمي البنيان الاجتماعي من التفكك وتعطيه قيمة فوق أرضية، وتدفع النفس الحضاري إلى الاستمرار في الإنجاز وتزوده بالمبررات التي هي أسمى من الكسب المادي وحياة الترف. ومن هنا ندرك سر القيمة الأخلاقية التي خص بها محمد صلى الله عليه وسلم الفضائل الخلقية باعتبارها قوة جوهرية في تكوين الحضارات"[13].

3. تحدي الفساد الكوني:

إن المجتمع الغربي والعالم كله يدفع حاليا ثمن الثورة الصناعية ... وملاحظة سريعة لبعض الإحصاءات تشير إلى التدهور الخطير الذي أحدثته هذه الثورة في الطاقة الإنتاجية للطبيعة، وفي ازدياد التلوث، لدرجة تهدد الجنس البشري ... فالغابات مثلا بدأت تضمحل بمعدل 16 مليون هكتار سنويا، ويفقد العالم 24 مليار طن من تربته السطحية، وتختفي العديد

من المناطق الرعوية، وانخفض مستوى المسطحات المائية نتيجة للضخ الجائر لمياه الري ... وتشير تقديرات الاتحاد العالمي لحماية الطبيعة أن 1283000 جنس نباتي وحيواني مهدد بالانقراض، وإلى اختفاء 30 ألف نوع سنويا"[14].

كما أن تكنولوجيا القتل الجديدة تهدد بقتل البشر وغيرهم من الكائنات الحية، وأن الأسلحة الكيميائية، والبكتيرية الفيروسية، والنووية، من أحدث تقنيات هذه التكنولوجيا القاتلة للحياة على كوكب الأرض.

لقد حقق الإنسان الذروة فيما يستطيع به أن يدمر كل الكائنات الحية على الأرض والبحار... إن قنبلتي هيروشيما وناكازاكي وما أحدثتاه من الدمار... وحادثة محطة القوى النووية في تشيرنوبيل، وحرب العراق، قد أظهرت كيف يمكن حين لا يتم التحكم، في آلية محطة القوى النووية، أن تقتل المواد النووية المتفجرة الشديدة السريعة كل إنسان بالقرب منها وتسبب دمارا إشعاعيا بالغ الخطورة للناس والكائنات الحية التي تعيش على مسافات بعيدة، بل حتى في القارات البعيدة[15].

وإذا نظرنا إلى مخزون الولايات المتحدة وروسيا الذي يصل إلى مائة ألف سلاح نووي، تبلغ قوة كثير منها أكبر من القنبلتين اللتين ألقيتا على اليابان آلاف المرات، فإذا انفجر حتى جزء قليل منها فليس هناك احتمال أن يبقى على قيد الحياة أي كائن من الكائنات الثديية، كما سوف تقاسي الكائنات الأخرى من أضرار مرعبة، ولن يصبح العالم قابلا للحياة بالنسبة للجميع[16].

التحدي والاستجابة قانون حضاري:

أولاً: وعي التحدي

في سبيل مواجهة التحديات التي يطرحها عصر العولمة، سواء على مستوى تحدي النموذج المعرفي، أو تحدي الأزمة الأخلاقية، أو تحدي الفساد الكوني. في هذا كله، ما هو دور المسلم؟

وما العمل الذي يقوم به المسلم حتى يحفظ ذاته من الذوبان؟ وكيف يساهم في حل أزمة الإنسانية التي تنتظر منقذا، يرفعها من مهاوي الإخفاق والجدل الوضعي وأوهام المادية، إلى مستوى نور الهدي الرباني، واستقامة المنهج، ووضوح الرؤية القائمة على التوحيد لله عز وجل؟

لا شك أن المأزق العالمي، الذي تعيشه الإنسانية إن على مستوى الروح أو المادة أو العقل وإن على مستوى الحضارة بعمومها، لا يمكن مواجهتها بالانكفاء على الذات، أو بالاستقالة من مجال صناعة التاريخ، كما "لا يمكن مواجهته بانفعال عاطفي بالإسلام، أو إيمان نظري بقدرة الإسلام على حل مشكلات البشرية، وأنه صالح لكل زمان ومكان"[17].

وإذا كان العالم اليوم موحد في مصيره، ويتوجه نحو تجميع قواه في صورة مصير مشترك، قد يصاغ على غير ما نرغب، وأن البشرية صارت تعمر الأرض، وكأنها في عمارة واحدة تتقاسم طوابقها الأمم، تربطهم وشائج، مهما كانت هذه الوشائج. فما هو دورنا نحن؟

إن أول ما ينبغي القيام به هو وعي التحدي، ويكون ذلك بخطوتين منهجيتين؛ وعي الذات الإسلامية، والوعي بخارطة الواقع الحضاري.

1. الوعي بالذات الإسلامية:

الوعي بالذات الإسلامية أمر ضروري، ومهم ودونه لا يمكن أن نحل مشكلاتنا، ولا أن نبلِّغ الهداية إلى الآخرين، ورسالتنا في عصر العولمة تتحدد بمدى فهمنا وتمثلنا للقيم الإسلامية، ولا يمكن أن نحقق التغيير المطلوب إذا لم نرتفع إلى مستوى الإسلام.

وبعبارة أخرى فإن الذات الإسلامية هي "الثقافة الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية والى الإسلام، لا كتقليد أو وراثة أو نظام عقيدة موجود بالفعل في المجتمع، بل إلى الإسلام كأيديولوجية وإيمان بفترة الوعي وأحدث المعجزة في هذه المجتمعات، هذه الذات ذات قديمة وعتيقة، ذات سجلت في التاريخ، ذات قطع أمد طويل من القرون علاقتنا بها، تلك الذات موجودة في التاريخ، ووعينا بها يقتضي العودة إليها، "وهذه العودة ... هي العودة إلى الذات الموجودة بالفعل والموجودة في قلب المجتمع وفي وجدانه، تصير مثل مادة ومنبع من منابع الطاقة، تفتت على يد مفكر، وتستخرج، وتحيا، وتتحرك، هي الذات الحية، ليست تلك الذات العتيقة القائمة على عظام نخرة، هي القائمة على أساس الإحساس العميق بالقيم الروحية والإنسانية عندنا، والقائمة على أرواحنا واستعداداتنا، والموجودة في نظرتنا إلى الأمور، لكن الذي صرفنا عنها هو الجهل والانقطاع عن النفس، وجعلها الجذب إلى ذوات أخرى مجهولة، لكنها على كل حال لا تزال حية، ذات حياة وحركة وليست كلاسيكية ميته تتبع علم الآثار. هي الروح والإيمان والحياة الوحيدة في المجتمع"[18].

ويقول مالك بن نبي: "إذن لكي يتحقق التغيير في محيطنا يجب أن يتحقق أولا في أنفسنا. وبذلك تتوفر شروط رسالة المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين[19]. وإلا فان المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه ولا إنقاذ الآخرين. ثم إذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما بالنفوس أولا، إذا كان منهج الرسالة يقتضي هذا، فإننا نستطيع أن نتكلم عن وسائل الرسالة أو الطرق العملية لتطبيق هذه الرسالة كي تفي بمهمتها، ألا وهي الإنقاذ أو مواجهة حالة إنقاذ أو حالة طوارئ تخص المسلم وتخص الإنسانية عامة. عندها يجب على كل مسلم أن يحقق بمفرده شروطا ثلاثة: أن يعرف نفسه، وأن يعرف الآخرين...،وأن يعرف الآخرين بنفسه ولكن في الصورة المحببة"[20]. والأمر هنا يتمثل في الانسجام مع أهداف وغايات الرسالة الإسلامية، والتطابق معها، على مستوى التصور العقدي، وعلى مستوى الممارسة العملية.

والوعي بالذات الإسلامية يعني تحقيق وتمثل المثل الإسلامية، وأن يعيشها الفرد المسلم والمجموع، وأن تصبح صبغة لمفردات الحياة اليومية للمسلم، وليس فقط التلفظ بعبارات التوحيد والتوكل والرضا والإتقان للأعمال، وغيرها.

فالتوحيد الذي هو جوهر الذات الإسلامية، ينبغي أن يحياه المسلم في أبعاده الاجتماعية والنفسية والعلمية، فعلى المستوى النفسي يربط المسلم مصيره وأمله وتوجهاته وأهدافه بالله عز وجل، فيخلص التوجه إلى الله، ليحقق وحدته من التمزق، وعلى المستوى الاجتماعي تنتفي مظاهر الصراع والتناقض ويكون توجه المجتمع نحو التكامل والتآلف، فتحكمه مبادئ الاستخلاف والإعمار والتسخير والعبودية لله عز وجل، وعلى المستوى المعرفي يتحقق لدى المسلم وحدة الحقيقة، وانسجام سنن الله في الكتاب وفي الأنفس والآفاق والتاريخ، فلا يحدث عنده تناقض بين الوحي والكون، ولا بين الوحي والعلم؛ لأن الوحي هدي صادق، والعلم توجه صادق بحثا عن الحقيقة.

لهذا فإن الوعي بالذات الإسلامية يقتضي أن يحياها المسلم ويحقق بها غايات الحق من الخلق، كما كان الجيل الأول رضوان الله عليهم، إذ كانوا قرآنا يمشي. يقول مالك بن نبي رحمه الله: "فالمسألة لا تتمثل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدته؛ ولكنها تتمثل في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة"[21].

ثم أن مواجهة أي غزو فكري تتطلب هذا الوعي بالذات، حتى يميز المسلم بين تفوق ذاته الإسلامية، وقصور مصدر هذا الغزو، وبالتالي تحقيق الحصانة من الغزو، والقضاء على عنصر القابلية للاستضعاف والغزو. "فقبل أن نواجه الغزو الفكري، لا بد من بناء شخصيتنا، وتحصين أنفسنا، لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو، ليس عندنا قابلية له ... وإذا تحصنا، لم يعد للغزو تأثير فينا..ولهذا لا بد لنا إذا رغبنا أن لا تؤثر فينا مخططات المتربصين، أن نبني شخصيتنا بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام، وموسومة بميسم الإيمان"[22].

2. الوعي بخارطة الواقع الحضاري:

إن الخريطة الحضارية للمجتمع الإنساني الراهن تتشكل من حضارات، وكل حضارة تعبر عن نموذج حياتي متميز عن غيره، وفهم الحضارة مقرون بوعي مذهبيتها ونظامها الفكري ومشروعها الاجتماعي ومنهجيتها المعرفية التطبيقية[23].

كما إنه من الواضح أن الضمير الإنساني في عصرنا لم يعد يتكون في إطار الوطن والإقليم، وهذا مع اعترافنا بأن أرض المولد التي يعيش عليها الناس تمدهم بالبواعث الحقيقية لمواقفهم العميقة، غير أن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية. فالثقافة أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي[24].

خاصة مع التطور الذي دفعت به موجات الحداثة وما بعد الحداثة وصولا إلى العولمة، وما صاحب ذلك من تطورات وأحداث عالمية أحدثت تأثيرا في وعي الإنسان واهتماماته ولم يعد وعيه يتشكل بشكل انعزالي عن المؤثرات الخارجية، ومن هنا فالوعي بها، ووضعها في الحسبان يمكن من التفاعل الإيجابي معها.

يقول مالك بن نبي في هذا الإطار: "فالمثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي"[25].

ولم يعد من المستساغ علميا وواقعيا الغفلة عن ما يجري من حولنا في القرية العالمية، وإلا فإن وعينا سيصيبه الضمور، ونجهل المعالم التي تتحرك على منحاها أحداث التاريخ، فالمستوى الشخصي للمسلم حتى ولو نما نموا نسبيا، يمكن أن يبدو في حالة تضاؤل، بقدر ما ينمو تطور الآخرين بسرعة أكثر. والواقع أن الوعي الاجتماعي الذي كان يتكون منذ حين في

دائرة محدودة أمام منظر محدد عموما، بنطاق بلاد معينة هي الوطن، قد أصبح يتكون اليوم في إطار أكثر امتدادا بدرجة لا تضارع، وفي منظر أكثر انفساحا.

ولهذا فالاهتمام بالآخرين يفرضه المنطق الإنساني، وتحتمه التداخلات بين الشعوب والأمم، وحياة الشعوب التي تواجه في عصرنا مشكلات خاصة بكيانها، ومشكلات مشتركة، أنها تعبر عن امتداد كيانها في عالم الآخرين، وتأثير العامل التكنولوجي الذي صاغ بالنسبة لكل شعب ضرورات من نوع خاص تفرض على حياته التزامات ومسؤوليات جديدة في نطاق أوسع من نطاقه التاريخي الجغرافي المعتاد[26]. هذه الالتزامات والمسؤوليات المتجاوزة للحدود التقليدية يكون مقياسا مباشرا لدرجة تحضر هذا الوسط حيث لا يحيا الفرد مع أهله ومواطنيه فحسب ولكن مع عدد أكبر من الناس[27]، من مختلف الأطر والانتماءات الحضارية والثقافية.

هذا إضافة إلى أن الإسلام مشروع حضاري منفتح على العالمية والإنسانية والكونية وهذا يفرض على المسلم؛ فردا ومجتمعا وأمة، الارتقاء بوعيه وهمه وطموحه وجهده.. من حضيض الذاتية والقبلية والطبقية.. وسفوح الوطنية والقومية المحصورة الخيرية في أرض وقوم.. إلى قمم العالمية والإنسانية والكونية، التي تصل المسلم والإنسان عامة بخيرات الأرض كلها، وتنفذ بهما عبر المظهر المادي في هذه الخيرات، إلى المعنى القيمي الإنساني الروحي في هذه الخيرات، وتنتهي بهما أخيرا، عبر هذه الروحانية الإنسانية، للالتحام ببقية الكائنات الكونية الأخرى[28].

ثانياً: من الوعي إلى صياغة فلسفة إسلامية تؤطر الوعي:

ولهذا نقول أن الوعي بالتحدي خطوة منهجية لازمة ومهمة، ولكن ينبغي أن يتحول ذلك الوعي إلى رؤية ومنهج ومسلكية ومشروع وخطط وفعاليات من اجل تفادي وقوع الكارثة بنا وبالإنسانية جميعا، "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة"، فنحن بحكم الدين الذي نؤمن به، وبحكم الموقع والدور الحضاري الذي اختارنا الله له واختارنا له وهو أننا امة الخيرية والشهادة والوسطية، فإنه ينبغي أن نباشر؛ نظريا وتطبيقيا، في ممارسة دورنا في توفير الزاد المعرفي والإجرائي للخروج من "الفتنة" وهي في هذه الحالة مجسدة في العولمة وما جلبت علينا بخيلها ورجلها. والخيرية باعتبارها رسالتنا، والشهادة دورنا، فإن الوسطية هي سبيلنا على مستوى التصور والمنهج والتطبيق.

فلسفة الوساطة أو الوسطية:

وبعبارة أخرى فإن الفلسفة الإسلامية المطلوبة لعصر العولمة هي فلسفة الوسطية؛ أو الوساطة الشارطة للشهادة على العالمين، هي فلسفة تحدد الهوية الحضارية للأمة في تعيناتها المختلفة التي تنتج القيم جميعا "الجمالية والخلقية والمعرفية والتشريعية والوجودية"[29] وحفظها وتبادلها واستهلاكها في المجتمع ككل وفي المؤسسات المناسبة لها "اعني الأسرة والمدرسة والمصنع والدولة والمسجد وغيرها" وتحقيقها في التاريخ بفضل التحديدات أو المجالات التي تتحقق فيها القيم أو النسق الذي يجري في حياة العمران "المكان والزمان والسلم العمراني والدورة العمرانية والدورة الكونية" فهذه الأحياز هي المجالات التي يجري فيها الوجود الانساني ويملؤها من حيث هو عين السعي الدائب من اجل تحقيق أصناف القيم[30].

تحديد مفهوم الوسطية:

والوسطية باعتبارها رؤية فلسفية، كما يعرضها الإسلام، ويجعلها قانونا كليا مطردا، للأصالة والفعالية والتجدد الحضاري، ومن ثمة شرطا قاعديا جذريا، للخيرية والمرجعية والقوامة والشهادة، هي على الدوام خلاصة تفاعل تكاملي متوازن للوعي الإيماني، والوعي الاستخلافي، والوعي التسخيري، في الفعل المعرفي، والفعل السلوكي، والفعل الاجتماعي، كمؤثرات مباشرة في حركة التغيير والإصلاح والتجديد الذاتي والاجتماعي والحضاري بشكل مطرد[31].

فالفعل المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي.. كمؤثر مباشر في حركة التغيير باستمرار، لا يكون فعلا وسطيا، إلا إذا كان فعلا تكامليا، ولن يكون فعلا تكامليا إلا إذا كان فعلا سننيا، ولن يكون فعلا سننيا إلا إذا كان فعلا منهجيا منتظما؛ على مستوى آليات البحث عن الخبرة السننية في عوالم الآفاق والأنفس والهداية والتأييد، وعلى مستوى اكتشاف قوانين استعمال هذه الخبرة، وعلى مستوى كفاءة استثمار هذه القوانين في حركة الدعوة والبناء والمواجهة، وعلى مستوى حماية هذه الحركة والمحافظة على منجزاتها، وعلى مستوى استشراف آفاق حركة التغيير والإصلاح والتجديد الحضاري بشكل مستمر.

الوسطية والخيرية:

وعلى هذا يجب أن تفهم وتفسر وتتخرَّج بعض المفاهيم المركزية في الكتاب والسنة، كمفهوم المجدد، والطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، والأولياء، والخيرية.. على سبيل المثال، التي ساد فهمها وتوجيهها واستثمارها، غبش واضطراب كبير وكثير، فضحته النتائج والمآلات

الخائبة له، في واقع كثير من الأفراد والجماعات والمجتمعات، عبر صيرورات تاريخ حركة التغيير والإصلاح والتجديد في الأمة.

والأمة لن تتصف بالخيرية والرشد، بمعزل عن التحقق العملي بالمضامين السننية المتكاملة لمفهوم الوسطية المركزي في الإسلام، الذي يقوم على كون الفعل أو الموقف الوسطي في المفهوم الإسلامي الصحيح، يشكل باستمرار قمة التكامل التوازني الخصب، بين نسب عناصر ومفردات المادة التسخيرية الأولية، المستثمرة في تأسيس وبناء الفعل المعرفي والسلوكي والاجتماعي، المؤثر في حركة الأمة والحضارة.

وأي فهم لهذه المفاهيم المحورية، بعيدا عن هذا المنطق، سيؤدي حتما إلى إخراجها عن سياقاتها الشرعية الوظيفية التكاملية الصحيحة، ويستعملها في غير مجالاتها الطبيعية، وتكون النتيجة الطبيعية لذلك خروج الفهم والأداء عن عمق الوسطية الإسلامية، التي هي شرط الأصالة والفعالية والتجدد، في حركة الالتزام الذاتي، وفي حركة الأداء الاجتماعي، وفي حركة التدافع والتداول الحضاري .

الوسطية الفعالة[32]:

والخيرية تكمن في الوسطية، وتتحقق بها دون سواها. لأن الوسطية هي ملتقى روافد الرشد في الخبرة البشرية المتناثرة هنا وهناك، في منظومات سنن الله في الآفاق، وسننه في الأنفس، وسننه في الهداية، وسننه في التأييد، التي يفتقر إليها، باستمرار، كل فعل بشري مهما كان، لكي يستكمل أصالة وفعالية واطرادية الفعل المعرفي أو السلوكي أو الاجتماعي.

من هذا المنطلق، فالوسطية تضعنا ضمن وضع منهجي قابل للاستفادة من كل أداء أصيل منتج يتفق مع القيم الوسطية التي تحدثنا عنها، وقابل أيضا للدخول في أي جهد أصيل ومنتج برؤية تكاملية، وبهذا تكون الوسطية قد أهلت جهود الأمة الفكرية والعملية لتستفيد من كل ذي خبرة سننية راشدة فعالة في تاريخ الأمة، بل وفي تاريخ الإنسانية، الذي هو في النهاية ميراث بشري عام، تستثير به الإنسانية كلها في مواجهة تحديات حركة الابتلاء والتدافع والتداول والتجديد في الأرض .

الوسطية التكاملية الإبداعية:

تجعلنا نبني وعينا وخبرتنا وحركة أدائنا الاجتماعي والفكري والثقافي وغيرها، على كل ما هو ذا طابع سنني كلي مطرد، بغض النظر عن مصدره، فالعبرة بالحق والصواب والخيرية في

الأساس. فالوسطية تأليف وتكامل في الوعي والتجربة والأداء.. بين الخبرات السننية المتناثرة عند العلماء والمفكرين والكتاب، والمبثوثة في المدارس الفكرية والتربوية والسياسية.. المختلفة، فنأخذ من كل أحد ما نكمل به وعينا، ونجدد به خبرتنا، ونفعل به أداءنا، ونؤصله ونحميه، ونحافظ على استمراريته. في روح متماسكة من الاستقلالية والتوازن والتواضع، وطموح متجدد نحو الإبداعية والإضافة، التي تجنبنا مزالق الإمعية، والحرفية، والتجزيئية، والتنافرية، والاستنساخية البليدة، والتنطع والغرور والمكابرة.. التي تشكل إحدى أكبر وأخطر عوائق الأصالة والفعالية، في الأداء السلوكي والدعوي والاجتماعي، كما نبه على ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه، الذي انفرد به الترمذي، والذي جاء فيه أن رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا﴾.

ثالثاً: أسس فلسفة الوسطية.

مبحث المعرفة المعرفي.

والبعد المعرفي يتضمن بصفة خاصة؛ البعد العقدي التوحيدي، والبعد الفكري، والبعد المنهجي، والبعد النقدي.

مبحث الروح والتزكية الروحية

وهو مركز الكيان البشري ، ونقطة ارتكازه، ومحور توازنه، الذي به تترابط أجزاؤه ، وتتماسك أبعاده ، وتتوازن قواه وطاقاته جميعا[33]. وهو البعد الذي أعطاه الإسلام مداه من الاهتمام ، وركز عليه بشكل مكثف في ترقية الإنسان وتربيته وتزكيته، واعتبره إحدى أهم غاياته من جهة ، وأفعل وسائله في تربية الإنسان ومواءمة نشاطه الإعماري مع سنن الله في الآفاق والأنفس والهداية والتأييد من جهة أخرى.

فالتنمية الروحية المتوازنة والمتكاملة والمطردة، ترقى بالجهد الإنساني إلى أعلى مستويات أصالته الفكرية، وفعاليته التسخيرية أو الإنجازية، لأن الإنسان بالألق الروحي الذي تمنحه له هذه التنمية الروحية، يكون في أعلى حالات توافقه النفسي، وتكامله الاجتماعي، وانسجامه الكوني .

3. مبحث السلوك:

النهوض بالسلوك في حياة الإنسان هو المقصد الأساس من الإمكان المعرفي والإمكان الروحي، وبقية الإمكانات التسخيرية الأخرى. لذا منحه الإسلام حقه من الاهتمام، وجعله هو محك مصداقية الإيمان، الذي بدون تجليه في السلوك الفردي والاجتماعي، يكون لا معنى له، بل يدرجه الإسلام في سياقات الفسوق والضلال والنفاق والعبثية والتيه.

فالساحة السلوكية هي مصب الخبرة المعرفية والطاقة الروحية. وهي المؤثر المباشر في حركة الحياة وصيروراتها الحضارية المختلفة.

4. مبحث الصناعة أو المنطق العملي:

وهذا يقوم على شحذ القدرات الإنجازية، التي هي الخبرات الفنية أو التسخيرية؛ الإدارية والتسييرية والاتصالية والتنفيذية الفعالة المتجددة، التي تمنح الفرد والمجتمع القدرة والكفاءة العالية، للتحكم الجيد في استثمار ما يتاح له في بيئته الطبيعية، وفي محيطه الاجتماعي، من طاقات وإمكانات بشرية ومادية وثقافية وروحية.. بفعالية نموذجية قصوى من جهة. كما تمنحه القدرة من جهة أخرى على تهيئة طاقات وإمكانات إضافية جديدة بشكل مستمر، تجعل تلبية المجتمع لحاجاته تجري بيسر وفي راحة، ومواجهته للتحديات المحيطة به، تتم بفعالية وكفاءة

وهذه القدرات الانجازية المنهجية الفنية منها ما هو ذو صلة بمنظومات سنن الآفاق، باعتبارها قوانين الله وأقداره في الطبيعة المادية أو العضوية، ومنها ما هو ذو صلة بمنظومات الأنفس، باعتبارها قوانين الله وأقداره في الفكر والروح والسلوك والعلاقات الاجتماعية والطبيعية. ومنها ما هو ذو صلة بمنظومات سنن الهداية، باعتبارها قوانين الله وأقداره في ما وراء العقل . ومنها ما هو ذو صلة بمنظومات سنن التأييد، باعتبارها قوانين الله وأقداره في ما وراء السنن المنظورة

وبهذا نكون قد أوجدنا فلسفة تمنح تصورا قائما على الوسطية التي جاء بها الإسلام تتضمن مجموعة من المباحث ينبغي أن نقوم على إنجازها لتوفير زاد معرفي وإطار تنظيري لجهدي في مقاومة تحديات العولمة والتجاوز إلى إنجاز مشروعنا في تحقيق الخيرية للناس.

الهوامش:

[1] عماد الين خليل، تحديات النظام العالمي الجديد

[2] - عبد الوهاب المسيري، "فقه التحيز"، منبر الشرق، السنة4، عدد18، شوال 1415هـ/مارس1995، ص 49.

[3] مالك بن نبي، شروط النهضة.

[4] - محمد قطب، واقعنا المعاصر، مكتبة رحاب، الجزائر، 1989م،ص343.

[5] - هذا المصطلح استعمله علي حرب في كتابه موجات الحداثة الفائقة، واستعمالنا له هنا لا صلة له بالدلالات التي اعطاها علي حرب للمصطلح في كتابه.

[6] ابراهيم جميل بدران و علي حبيش، نحو حضارة اسلامية مستقبلية...اساسها الايمان والعلم.، موتمر المنظمة الاسلامية للطب.

[7] - انظر مقالنا: الابعاد السياسية لمفهوم الحاكمية روية معرفية، إسلامية المعرفة، العدد الرابع، ذو القعدة 1416هـ/ ابريل 1996م، ص 211-225.

[8] دواق الحاج، الروية المعرفية القرانية، موقع الشهاب للإعلام.

[9] - نقلا عن احمد عروة، العلم والدين مناهج ومفاهيم،ط1، دمشق، 1407هـ/1987م، ص10.

[10] طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي مدخل الى نظام الخطاب في الفكر الاسلامي المعاصر، سلسلة (قضايا اسلامية معاصرة ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، 1998، ص24.

[11] - نفس المرجع، ص153. بتصرف.

[12] المرجع نفسه، ص24.

[13] - وجهة العالم الاسلامي، ص30.

[14] - منذر سليمان، "مقولة هنتغتون.. صدام للحضارات أم دعوة للتطهير الحضاري؟ "، الحوار، نيسان/ ابريل1997، ص24.

[15] - سير روي كالن، عالم يفيض بسكانه، ترجمة: ليلى الجبالي، سلسلة عالم المعرفة (213)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، 1996م، ص ص147-149، بتصرف.

[16] - المرجع نفسه، ص149.

[17] - فريدة صادق زوزو، البعد المقاصدي في فقه عمر بن الخطاب واثره في المذهب المالكي، رسالة ماجستير غير منشورة، ص13.

[18] علي شريعتي، العودة الى الذات، ترجمة: ابراهيم الدسوقي شتا، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1986 ص27-36.

[19] ولعل هذه الروية الاستشرافية من ابن نبي رحمه الله تصدق حتى ايامنا هذه.

[20]- دور المسلم ورسالته، ص ص58-59.

[21] - قضايا كبرى، ط1، دار الفكر، دمشق، 1991م،ص123.

[22] - احمد عبد الرحيم السايح، في الغزو الفكري، ص ص79-80.

[23] - عبد العزيز برغوث، الوعي المعرفي القراني ومنهجية التغيير الحضاري، مخطوط، ص90.

[24] - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص121.

[25] - مشكلة الثقافة، ص116.

[26] - مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، 1988م، ص ص 7-8.

[27] - مالك بن نبي، فكرة كمنويلث إسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1990م،ص67.

[28] الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة،

[29] ابو يعرب المرزوقي والطيب تيزيني، افاق فلسفة عربية معاصرة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001، ص23

[30] المرجع نفسه، ص24.

[31] الطيب برغوث،

[32] الطيب برغوث، مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية، دار قرطبة، ص43-46.

[33] محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية / 47